قالت العرب

ويبقى الرجلُ وحيداً، وعلى مهلٍ يمشي الطفلُ إلى أطرافِ
حديقتِه، يتسلّقُ أسوارَ الأيامِ، فيسقطُ في الصحراءِ، ويكبرُ،
يأكلُ عشبَ الرملِ وتهربُ منه الريحُ، ويكبرُ، أتذكرُهُ الآنَ، يميلُ

المشهد
العدد 349 – السنة الرابعة عشرة-الأربعاء 1 أبريل 2026 م – 13 شوال 1447 هـ

أوقفوا ترامب | عندما يكون مصير العالم في قبضة مجنون

من دونالد ترامب على منصة "سوشيال تروث"، منصته الخاصة ليغرد عبر ما يشاء، والتى أطلقها عندما حظرت منصة "تويتر" السابقة تغريداته، وكذلك التصريحات التى يدلى بها فى مؤتمرات عامة مثل مؤتمر مستقبل الاستثمار فى فلوريدا يوم الجمعة الماضي، سيلاحظ دون عناء أننا أمام شخصية تعانى من اضطرابات نفسية وعقلية خطيرة تستدعى توقيع كشف طبى واتخاذ قرار بخصوص صلاحيته لرئاسة أقوى دول العالم تسليحًا، والصلاحيات الواسعة التى يمتلكها وتمكنه من شن العدوان على الدول الأخرى وإشعال حروب مدمرة ليس لخصومه فقط، وإنما يطول هذا التدمير الحلفاء، بل الدولة التى يقودها ذاتها، والتى تجسدها الحرب التى أطلقها بعدوانه على إيران، والتى لا يستطيع أحد وقفها.

فى رأى كثير من العلماء والمفكرين الغربيين والأمريكيين مثل عالم السياسة الأمريكي، من أصل سويسري، إيمانويل والرشتين، الذى وضع نظرية للنظام الرأسمالى العالمي، فإن المسألة تتجاوز ترامب وتعبر عن أزمة بنائية فى النظام الرأسمالى العالمى ذاته. كتب والرشتين الذى توفى فى عام 2019، فى مقالة له نشرتها مجلة "مانثلى ريفيو" الأمريكية، فى 30 مايو عام 2003، أى بعد أسابيع من غزو العراق والإطاحة بحكومة البعث بزعامة الرئيس صدام حسين، أشار إلى أن الأزمة التى يعانى منها النظام العالمى الذى يراه نظاما رأسماليا بامتياز، أزمة بنائية سببها الإمبريالية التى يرى أنها "جزء لا يتجزأ من الاقتصاد العالمى الرأسمالي"، وأنها "ليست ظاهرة استثنائية"، وستبقى موجودة طالما بقى الاقتصاد العالمى رأسماليًا. لكن الأهم هو ما لاحظه مع غزو العراق من أن هذه الإمبريالية تتخذ "شكلاً عدوانيًا وفظيعًا" و"باتت مستعدة الآن للتصريح بأنها إمبريالية". ومع ترامب دخلت هذه الإمبريالية طورا جديدا من الجنون المدمر.

لقد كانت علامات الاضطراب النفسى واضحة على ترامب منذ ترشحه لخوض الانتخابات الأمريكية فى عام 2016، وخلال فترة ولايته الأولى المضطربة (2016–2020)، وخلال السنوات الأربع فى ولاية جون بايدن الديمقراطية (2020–2024)، ومع هذا أعيد انتخابه بأغلبية كبيرة فى انتخابات عام 2024، استنادا إلى وهم تمكنت ماكينة حملته الانتخابية من بيعه للناخب الأمريكي، يتلخص فى أن ترامب هو الرئيس الوحيد القادر على وقف الحروب التى اتهم إدارة بايدن بأنه السبب فى اندلاعها، لاسيما حرب أوكرانيا، التى اندلعت فى فبراير 2022، وحرب غزة التى اندلعت فى أكتوبر عام 2024. وظل ترامب يروج لأكذوبة أنه استطاع وقف سبعة حروب فى العالم، بل طالب بأحقيته للفوز بجائزة نوبل للسلام 2025. ولم يفق العالم من هذا الوهم الكاذب، على الرغم من اتساع رقعة الحروب فى العالم، بسبب سياسات ترامب، إلا بعد وقوع كارثة حرب إيران صباح يوم السبت 28 فبراير. وربما يكون السؤال الأهم كيف تسمح الديمقراطية الأمريكية بوصول شخص مضطرب نفسيا وعقليا، وحديثه أقرب إلى هذيان شخص مصاب بجنون العظمة إلى الرئاسة؟ الإجابة على هذا السؤال لا تنفصل عن طبيعة الأزمة التى وصلتها الرأسمالية العالمية فى طبعتها الأكثر رداءة وانحطاطًا.

مفارقة القوة والضعف

بينما تركز ماكينة الدعاية الأمريكية ووسائل الإعلام والدعاية التابعة لها فى أنحاء العالم على القوة الاستثنائية التى تتمتع بها الولايات المتحدة، والتى تصر على أنها القوة الوحيدة فى العالم القادرة على فرض إرادتها على الآخرين، رغم مظاهر العجز الواضحة فى مواجهة كثير من الأزمات فى العالم، وفشلها فى إحداث أى فارق فى باكستان، مع مشاهد الانسحاب التى اتسمت بفوضى لا مثيل لها، وعجزها عن حسم كثير من الصراعات والحروب فى مناطق مختلفة، يرى والرشتين وغيره من علماء السياسية والاجتماع أن الشكل العدوانى للإمبريالية لا يعكس قوة الولايات المتحدة، كما يظن الواقعون تحت تأثير الدعاية الأمريكية، وإنما سبب هذه الروح العدوانية هو ضعف الولايات المتحدة الأمريكية وتراجع هيمنتها العالمية. وفى عام 2003، نشر والرشتين كتابًا بعنوان "انحسار القوة الأمريكية: الولايات المتحدة فى عالم من الفوضى"، صدرت ترجمته العربية فى عام 2014. إن حديث والرشتين وغيره من علماء مدققين عن تراجع القوة الأمريكية أو انحسارها يستند إلى تحليل رصين للاتجاهات العامة على مدى زمنى طويل أو ما يعرف بالمسار الطويل للتاريخ وهو منهج وضعه المؤرخ والمفكر الفرنسى البارز فرنان بروديل (1902–1985)، وطبقه هو وباحثون آخرون دراسة كثير من الاتجاهات التاريخية، فهو لا يعبر عن انطباع عام بتأثير حوادث راهنة، وإنما يرصد مسارات تاريخية طويلة الأمد، وتضع الحوادث فى سياقها.

وفق منهج المسار الطويل فإن مرحلة الهيمنة الأمريكية على العالم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فى عام 1945، مثلها مثل مرحلة الأحادية القطبية التى أعقبت انتهاء الحرب الباردة فى مطلع التسعينات، لم تكن سوى لحظة عابرة. فلم تستمر الهيمنة الأمريكية، التى تعنى اقتناع العالم الغربى على الأقل بأحقيتها فى زعامته، سوى 25 عامًا تقريبًا، إذ واجهت الولايات المتحدة صعوبات فى الفترة ما بين عامى 1967 و1973 بسبب ثلاثة أمور، أولها، أنها فقدت تفوقها الاقتصادى النسبي، نتيجة صعود أوروبا الغربية واليابان وتزايد قدرتهم على الدفاع عن أسواقهم، وغزو الأسواق الأمريكية، بما ترتب على ذلك من تداعيات سياسية. الأمر الثانى هو ثورة 1968 العالمية، التى أعلن المشاركون فيها رفض الهيمنة الأمريكية على العالم، ورفض تواطؤ الاتحاد السوفيتى مع هذه الهيمنة، والتى كانت بمثابة إعلان إفلاس اليسار التقليدى القديم، الذى يعبر عنه الأحزاب الشيوعية والأحزاب الاشتراكية الديمقراطية وحركات التحرر الوطنى التى لم يؤد وصولها إلى السلطة إلى تغير العالم، لكنه قوّض الأساس الأيديولوجى لاتفاقية يالطا، التى قسمت العالم بين القوى المنتصرة فى الحرب، والتى لم تشمل بلدان العالم الثالث التى رفضتها. فى هذه الفترة شهد العالم أربع هزائم كبيرة على الأقل للإمبريالية، فى الصين، فى عام 1948، وفى الجزائر وفى كوبا وفيتنام، والتى أعادت تشكيل الجغرافيا السياسية للعالم منذ السبعينات، حين بدأ المسار التاريخى لانحسار القوة الأمريكية.

لا تنحصر المشكلة فقط فى انحسار القوة الأمريكية وتراجعها وإنما تتمثل أيضًا فى تغيّر كيفية التعامل مع هذا التراجع، وفقدان الهيمنة. ويلاحظ من خلال مراجعة السياسة الخارجية والاستراتيجية الأمريكية منذ إدارة الرئيس الجمهورى ريتشارد نيكسون فى السبعينات، حتى مطلع الألفية مع إدارة الرئيس الديمقراطى بيل كلينتون، التعامل بأسلوب القفاز المخملى الذى يخفى قبضة حديدية، وإقناع أوروبا الغربية واليابان وغيرهما بأن الولايات المتحدة قادرة على التعاون؛ وأن بإمكان الآخرين تشكيل تحالف من شبه متساوين، مع ممارسة الولايات المتحدة "للقيادة". طرحت فى هذه الفترة أطر كثيرة للتعاون مثل اللجنة الثلاثية ومجموعة السبع، التى جرى توسيعها من خلال منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية ومجلس والمجلس الأطلسى ومجموعة العشرين، وما يُسمى "إجماع واشنطن" الذى تبلور فى ثمانينات القرن العشرين، الذى حل محل عقد التنمية الذى أعلنته الأمم المتحدة فى السبعينات، والذى قام على فكرة تحقيق التنمية من خلال نوع من السيطرة على ما يجرى داخل الدول القومية ذات السيادة. لكن فى مقابل هذا النهج التعاونى كان هناك تصور آخر فى الفكر الأمريكى يميل إلى العزلة والأحادية فى إدارة الشؤون الخارجية بما يتوافق مع ما يرونه فارق فى القوة الأمريكية يعكسه الأعباء التى تتحملها الولايات المتحدة. وتراوحت الإدارات التى تعاقبت على البيت الأبيض منذ الألفية الجديدة بين النزعة الانعزالية الأحادية وبين النهج التعاوني.

ترامب محاطا بالعدسات

فى سياق هذا التردد بدأ التخلى عن النزعة التنموية والتقليل من شأنها، والتى فشلت بشكل واضح بحلول أواخر الثمانينيات، واستبدالها بالعولمة، والتى تعنى فتح الحدود، وإزالة الحواجز أمام حركة السلع ورأس المال، مع تقييد ذلك الانفتاح فى وجه قوة العمل، والسعى إلى بناء توافق أيديولوجى كم خلال منتدى دافوس، كملتقى لنخب العالم، بما فى ذلك نخب العالم الثالث، والعمل باستمرار على جمع ودمج أنشطتهم السياسية، وفى هذا السياق شنت الولايات المتحدة هجوما مضادا لليبرالية الجديدة على ثلاثة مستويات: خفض الأجور فى جميع أنحاء العالم؛ وخفض التكاليف على الشركات، بما فى ذلك القيود البيئية على نشاطها؛ وخفض الضرائب، التى كانت تدعم الرعاية الاجتماعية، أى دعم التعليم والرعاية الصحية وضمانات الدخل مدى الحياة، وأدى هذا الهجوم المضاد إلى تغير الاقتصاد السياسى للنظام العالمي، لكنه لم يوقف تراجع القوة الأمريكية، إذ لم تحقق الولايات المتحدة سوى نجاح جزئ طفيف فى هذه الأمور الثلاثة. فقد ارتفعت منحنيات التكلفة بشكل كبير فى وقت تتزايد فيه التهديدات التى تواجهها القوة العسكرية الأمريكية، خصوصًا مع الانتشار النووى وامتلاك دول صغيرة، مثل كوريا الشمالية أسلحة نووية، الأمر الذى يعنى تزايد صعوبة قيام الولايات المتحدة بأى عمل عسكري، ويزيد صعود الاتحاد الأوروبى من إحساس واشنطن بالضعف النسبى وتراجع القوة والنفوذ، إذ بات واضحًا أنها تعارض أى محاولة لإنشاء دولة أوروبية موحدة لديها قدرة على تحدى النفوذ الأمريكى لأن ذلك يعنى ببساطة أن تفقد الولايات المتحدة السوق الأوروبى وربما أسواق أخرى، بما فى ذلك السوق الأمريكى نفسه، وفى هذا السياق برز التحدى الصينى المتصاعد مع تزايد احتمالات بروز الصين كقوة عالمية تشارك الولايات المتحدة فى زعامة العالم وفرض معاييرها للنظام العالمي.

انتهاء عصر النصر المبين

ربما كان التحول الأهم فى أعقاب انتهاء الحرب الباردة، هو انتهاء حقبة امتلكت فيها القوى الكبرى القدرة على تحقيق انتصارات حاسمة فى الحروب. ربما كان هذا التحول قد بدأ قبل ذلك بعقود، فمنذ حرب أكتوبر عام 1973، فإن الحرب تُدار للوصول إلى نقطة تعادل تنتهى عندها الحرب بعد تحقيق بعضًا من أهدافها الرئيسية وبما يسمح بعقد هدنة قد تؤدى إلى ترتيب تسوية أكثر استقرارًا أو لجولة أخرى من الحرب لتحسين شروط التسوية، وفق موازين القوى الجديدة. فلم تتمكن العراق ولا إيران من تحقيق انتصار بعد حرب استنزاف استمرت ثمانية أعوام، وكذلك انتهت الحرب الأفغانية بانسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان دون اتفاق على ترتيبات ما بعد الحرب، لتترك الدولة فى قبضة الفصائل المسلحة التى تصارعت السلطة لتتحول إلى قاعدة للجماعات الإسلامية الجهادية التى شكلت تهديدا لأمن الدول والأمن العالمي. لم يتغير هذا الوضع حتى بعد تفكك الاتحاد السوفيتى والدخول فى مرحلة قصيرة من الأحادية القطبية، ولم يتمكن التحالف الدولى بقيادة الولايات المتحدة من تحقيق انتصار حاسم على العراق فى حرب الخليج الثانية التى انتهت بانسحاب القوات العراقية من الكويت بعد شهور من الغزو، ولم تتمكن واشنطن من توظيف قوتها ولا الدعم الدولى لحل مشكلتى أمن الخليج أو الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين وكل من سوريا ولبنان.

ومع نهاية التسعينات وانتهاء الانتعاش المؤقت للاقتصاد الأمريكي، الذى لم ينعكس إيجابيًا غلى الاقتصاد العالمى الذى شهدت سلسلة من الأزمات، جاءت هجمات 11 سبتمبر 2001، التى أظهرت هشاشة الولايات المتحدة من ناحية، وبروز تهديدات جديدة لأمنها وأمن حلفائها من الجماعات الجهادية التى تشكلت فى إطار الحرب الأفغانية، الأمر الذى أدى إلى تزايد شعور الصقور فى السياسية الأمريكية بالقلق نتيجة تراجع القوة الأمريكية. ويرى والرشتين أن هؤلاء الصقور الذى جاءوا مع الإدارات الجمهورية منذ جورج بوش الابن، فى محاولتهم إحداث تغيير جذرى لسياسة "القفاز المخملي" والنهج المتعدد الأطراف الذى رأوا أنه فشل فى وقف تراجع القوة الأمريكية بل أدى إلى تسريع انحدار الولايات المتحدة، ويعتقدون أن من شأن الانخراط فى عمل إمبريالى صارخ وعلنى أن يوقف هذا التدهور، ومن ثم كان الغرض الأساسى لغزو العراق فى عام 2003، هو "إظهار قدرة الولايات المتحدة" لترهيب أى دولة فى العالم الثالث تسعى لامتلاك القنبلة النووية أو أسلحة الدمار الشامل وترهيب أوروبا والحلفاء الآخرين. وردت أوروبا على ذلك بالامتناع عن التصويت على مشروع قرار أمريكى فى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة فى مارس 2003، الأمر الذى أجبر واشنطن على سحب القرار كى لا يتعرضوا لمزيد من الإهانة سياسية، وفقدان الشرعية.

حاول المتشددون فى الولايات المتحدة التعامل مع هذا العصيان الأوروبى بالضغط من أجل توسيع الحرب من خلال الترويج لسؤال من التالى بعد العراق، وحديثهم عن محور الشر الذى يضم إيران وكوريا الشمالية ودول أخرى فى الشرق الأوسط وخارجه يتهمونها بدعم الإرهاب، لكن جرى التصدى لهذا النهج من داخل الولايات المتحدة، وتحديدا فى أبريل 2003، من خلال تصريح لورانس إيجلبرجر، وزير الخارجية فى عهد الرئيس بوش الأب، والمستشار المقرب لبوش الابن، للتحذير من محاولة غزو سوريا، وهو التصريح الذى يشير إلى معارضة شريحة مهمة من رأس المال الأمريكى والعالمى للمتشددين الذين سيطروا على أجهزة الدولة الأمريكية، وسعيهم لاستغلال الفرصة التى أتاحتها هجمات 11 سبتمبر لمواصلة الضغط، الذين يواجهون معارضة من رأسماليين آخرين يشعرون بالقلق من "الخيار شمشون" الذى يتبناه المتشددون. لكن الوضع الفوضوى المرتبط بأزمة الرأسمالية كنظام، يفرض وضعًا خارج عن السيطرة، لا سيما الولايات المتحدة، التى ستعجز حكومتها عن إدارة هذا الوضع.

هذه الحقيقة واضحة اليوم فى ضوء العجز الأمريكى عن حسم الحرب مع إيران أو حتى تحقيق أى من أهدافها الرئيسية المعلنة، أو حتى الحصول على حل يحفظ ماء الوجه، نظرًا لإصرار إيران على حرمانهم من ذلك الحل ورفضها خطة ترامب وشروطه لإنهاء الحرب، وطرحها شروطا مضادة معتمدة على قدرتها على تصعيد الحرب على إسرائيل بتوجيه ضربات مباشرة لها، أو بالاعتماد على حزب الله فى لبنان والحوثيين فى اليمن، وكذلك قدرتها على استهداف القوات العسكرية الأمريكية فى منطقة الخليج وفى محيطه القريب والبعيد. ويتجلى انحسار النفوذ الأمريكى فى حلف شمال الأطلسى ولدى الحلفاء الأوروبيين الذين أعلن بعضهم، مثل فرنسا وإسبانيا، رفض استخدام القواعد العسكرية الأمريكية على أراضيهم أو المجال الجوى فى الحرب على إيران. ورفضهم مساعدة ترامب فى هذه الحرب.

المشكلة لا تكمن فقط فى تراجع النفوذ الأمريكى وانحسار قوتها، وإنما تكمن فى إصرار إدارة ترامب، التى ترفع شعار "استعادة قوة أمريكا" على السير فى الاتجاه المضاد لحركة التاريخ. إنه يدرك كل يوم تستمر فيه الحرب عجز القوة الأمريكية عن حماية الأصول العسكرية الأمريكية فى المنطقة التى تقف عاجزة فى مواجهة إيران الأقل قدرة، وتعجز عن حماية الدول الحليفة التى تستضيف هذه القوات، لا يدرك ترامب، وبسبب ضعف واضطراب قدراته العقلية على ما يبدو، معنى تمديد الإنذارات التى يوجهها لإيران لقبول شروطه فى الوقت الذى تصعد فيها إيران وحلفاؤها الهجوم على إسرائيل، على نحو يهدد "حاملة الطائرات الأمريكية التى لا تغرق"، بالتدمير الذى يصعب تحمله أو تحمل نتائجه. ربما أدرك ترامب متأخرًا أن للقوة مهما بلغت حدودا لما تستطيع تحقيقه، حين لوح إلى أنه قد يقدم على خطوة متهورة بإعلان وقف الحرب وليحدث ما يحدث، وهو قرار يكشف أننا أمام شخص مختل لا يقدر عواقب تصرفاته وتهوره. فمثل هذه الخطورة قد تفتح الباب لوضع يخرج عن السيطرة تماما واللجوء إلى خيار هدم المعبد على رؤوس من فيه.

يتحدث كثير من المراقبين منذ بداية الحرب عن أن ترامب يبحث عن "صورة نصر"، ولو زائفة، فى حين أن إيران التى تدرك جيدًا أن الجيش الأمريكى منى بهزائم مذلة أجبرته على الانسحاب من قبل، سواء فى فيتنام أو فى لبنان أو فى العراق وأفغانستان، وأن أمامها فرصة لإجباره على إنهاء الحرب دون إعلان انتصار، رغم الفارق الكبير فى ميزان القوة العسكرية بين الطرفين. وقد يكون هذا هو الخيار الأفضل إذا أراد أن يحتفظ بموطئ قدم فى المنطقة لكن هذا الأمر مرهون بقدرته على شل حركة شمشون، حليفه الوحيد فى هذه الحرب، وبالتجاوب مع جهود الوسطاء وفى مقدمتهم مصر والسعودية وباكستان وعمان وقطر، والتفكير مليًا فى ترتيبات ما بعد الحرب. الأمر معقود أيضًا على بروز من يستطيع وقف هذا الجنون فى واشنطن، واحتواء مغامراته وشطحاته. إن واشنطن بحاجة إلى إيجلبرجر آخر لإنقاذها من مواصلة حرب لا تشنها من أجل إسرائيل وإنما إنقاذ رئيس وزرائها بنيامين نتنياهو، وإنقاذ ما تبقى من سمعتها فى العالم. لن نتحدث الآن عن محاسبة ستأتى حتمًا لمن تسبب فى هذه الكارثة لإقدامه على عدوان كان بالإمكان تجنبه.

بقلم: أشرف راضي

فى ذكرى مولده، عرابى الذى أنصفه التاريخ قليلاً، وخذله كثيرًا

اليوم ذكرى مرور ١٨٥ عاما على مولد الزعيم أحمد عرابى باشا المولود فى يوم ٣١ مارس ١٨٤١ بقرية هرية رزنة – مركز منيا القمح، شرقية، ذلك الفلاح الذى خرج من قلب الريف ليقف فى وجه سلطة استبدّت بالبلاد، ويجهر بكلمة غيّرت مجرى التاريخ: لقد خلقنا الله أحرارًا ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا. قاد هذا الوطنى الشريف الثورة العرابية فى ١٨٨٧م بإيمان عميق بحق المصريين فى الحرية والعدالة والمساواة، رافضًا هيمنة طبقة بعينها على الملك، ساعيًا لإقامة حكم يقوم على المساواة والإنصاف.

ناصر يحيي ذكرى عرابي

غير أن التاريخ لم يكن منصفًا معه طويلًا؛ فقد صُوِّر فى كثير من الفترات كسببَ للهزيمة، وتُركت سيرته نهبًا للتشويه والإهمال، بينما كانت الحقيقة أن الرجل واجه ظروفًا أعقد من أن يتحمّلها فردٌ وحده: تدخل أجنبي، وانقسام داخلي، وتحالفات لم تكن فى صالح مشروعه الوطني.

ورغم وضوح هذه الحقائق وعدالة القضية التى حملها، فإن المفارقة المؤلمة فى مسار التاريخ أن الحق لا يجد دائمًا من ينصفه، كما أن الباطل لا يخلو أبدًا ممن يدافع عنه أو يبرره، فدائما وأبدا ستجد أنصارًا لأحط الشخصيات التاريخية والسياسية؛ الخديوى توفيق نفسه ستجد له أنصارًا فى التاريخ، وفى الحاضر، فأنصاره فكرة والفكرة لن تموت!

إبراهيم آغا كان توتونجى الخديوى توفيق باشا، والتوتونجى هو "الرصّيص" بتعبير هذه الأيام، المسئول عن "كيف" ولى النعم. استأذن الخديوى للدخول على عرابى فى محبسه، وأهانه وبصق عليه! وكوفيء عن ذلك بمساحة شاسعة من الأرض، هى ما تُعرف اليوم بمنطقة حدائق حلوان.

مكافأة العملاء وقطّاع الطرق ديدن ومنهاج؛ فما تعرفه اليوم فى محافظة الإسماعيلية باسم "أبو سلطان" كانت مكافأة لسلطان باشا (رئيس مجلس النواب) على وقوفه إلى جانب الإنجليز ضد عرابى باشا المكلوم. وكذلك سعود الطحاوى وما تملكه ذريته إلى الآن فى جزيرة سعود بمركز الحسينية – شرقية (عن آلاف الأفدنة آتحدث!)

بينما ظلت سيرة عرابى مقرونة بالعار والخيبة طوال فترة الاحتلال الإنجليزي، وبمباركة "النخبة المصرية" بداية من مصطفى كامل، مرورا بأحمد شوقى (ألمع وجه فى الثقافة المصرية وقتذاك) الذى أنشد يوم رجوع عرابى من منفاه قائلا: صفار فى الذهاب وفى الإياب.. أهذا كل شأنك يا عرابي! وصولا إلى كل باشوات وأغنياء هذا العصر.

عاش عرابى بعد عودته من منفاه فقيرًا مهمشًا ومنسيًا، ويوم وفاته شَيّعَهُ فى صمت عدد محدود، حتى أن أحدهم تساءل: من الميت؟! فقيل له: واحد اسمه عرابي! ولم يُنصَف عرابى (ولو بالكتابة) إلا بعد ١٩٥٢، بداية بإصرار المرحوم جمال عبدالناصر على تعليق صورته أثناء مباحثات الجلاء مع الإنجليز، ثم بعض الأقلام مثل محمود الخفيف وصلاح عيسى.

والخط الواصل بين عرابى (عدو الخديوى والإنجليز والنخب التركية – الشركسية) وعبدالناصر يفسر جزءًا كبيرًا من العداوة مع تجربة عبدالناصر: فكيف لفلاح صعيدى أن يكشف عورات طبقات صعدت وتبلورت وعاشت على الإرتزاق والعمل لدى المحتل، أو كشماشرجية عند ولى النعم بانتظار فتاته، فى عصر من كانت والدته تعمل "ماشطة" بالقصر الملكى يعد نفسه سيدًا على الفلاحين ويمتلك مئات الأفدنة.

قد يختلف الزمن، وتتبدل الأدوات، لكن المعركة واحدة: إرادة شعب فى مواجهة نفوذ وهيمنة. دفع عرابى ثمنَ البدايات، وحمل عبد الناصر عبء الاستكمال والنهايات، وبينهما سيرة وطن حاول أن ينهض رغم العثرات.

بقلم: د. أحمد عبدالعزيز بكير

اسمح لنا أن نختلف معك يا سيادة الرئيس

بداية

سيادة الرئيس، لا يطمح جل المعارضين فى منصب؛ وإنما يريدون الخير للبلاد جميعها؛ حاكما ومحكوما؛ ولقد أمر الله من هو خير منا جميعا بالاستماع لمن هم دونه قدرا ومنزلة؛ فقال لنبيه "وشاروهم فى الأمر"؛ ووصف الصالحين من عباده بأن "أمرهم شورى بينهم"

وفى سبيل انجاح ذاته ودعوته؛ استعان النبى فى مسيرته بأهل الكفاءة؛ ولو كان كافرا؛ وطلب العون من أهل المروءة؛ ولو كان على غير رسالته.

فتحكى لنا كتب التاريخ، أن النبى استعان فى رحلة الهجرة من مكة إلى المدينة بدليل مشرك، هو عبد الله بن أريقط الليثى (أو ابن أرقط)، خبير الطرق ومسارب الصحراء، والأكفأ فى مجاله.

كما طلب النبى وهو فى أضعف حالاته البشرية، جوار المطعم بن عدي؛ كى يدخل مكة فى حمايته بعد خروجه لرحلة قصيرة؛ دعا فيها أهل الطائف للإسلام فآذوه وضربوه وردوه على عقبيه.

لم يسمح سادة قريش بدخوله مكة تحت جوارهم؛ لكن المطعم بن عدى أجاره؛ وخرج متسلحا مع ابنائه؛ كى يحموا النبي؛ حتى يدخل بينه آمنا مطمئنا؛ وطاف بالبيت تحت حماية المطعم وأبنائه.

وفى أقوال الراجحين على مر التاريخ ما يدعونا للإستماع؛ فيقول الإمام على كرم الله وجهه: "من شاور الرجال شاركها فى عقولها؛ ومن أعجب برأيه ذل؛ ومن استغنى بعقله ضل."

استمع إلينا يا سيادة الرئيس، فلربما يأتى الربيع، والعام عام جوع فيكون فى وجهة نظر المعارض انقاذ للبلاد والعباد.

لقد ضرب الله لنا مثلا بنبيه يوسف عليه السلام وعزيز مصر؛ فقد سجنه الحاكم واتهمه فى شرفه؛ لكنه لم يستنكف أن يستعين به بعد إخراجه من السجن؛ بعدما تيقن من كفاءته.

طلب يوسف استوزاره مقدما مصوغات تعيينه" إنى حفيظ عليم" فقبلها الحاكم ولم يتردد.

رسائل سامية، فى تلك القصة؛ حتى لمعارضى الحاكم ولو كانوا سجناء عصره؛ آلا وهى "العفو الشامل" من جانبهم؛ بعدما كان العفو من جانب الحاكم أولا.

سعى يوسف للمصالحة وهو مظلوم؛ فطلب وساطة من توسم فيه خيرا؛ فقال للوسيط" إذكرنى عند ربك" لكن الوسيط نسي؛ حتى احتاج الحاكم ليوسف؛ فتدخلت الأقدار؛ ليصبح كلاهما فى خدمة الآخر.

لم يحمل يوسف حقدا فى قلبه على من اتهمه فى شرفه؛ بل تعاون مخلصا لإنقاذ العزيز والبلاد من المجاعة؛ لم يمكر به أو يستغل منصبه للإطاحة بالحاكم. ولم ينتهز فرصة؛ أن البلاد فى مجاعة؛ فيؤلب الناس على الحاكم الذى ظلمه، وحبسه، واتهمه فى شرفه.

تسامح الطرفان برقى مدهش؛ ولعل فى تلك القصة، وهى أحسن القصص؛ السبب الكامن لتسمية حاكم مصر بـ "العزيز"؛ فقد أعز الله به البلاد؛ فأخرجها من مجاعتها؛ استمع لمعارضيه؛ واستعان بأهل الكفاءة، ولو كانوا حصومه؛ فأعزه الله، وأعز به البلاد.

من رسائل تلك القصة البهية؛ أن معارض الحاكم، ولو كان سجينا مظلوما؛ فله أن يطلب العفو، ويسعى جاهدا إليه، ويطلب منصبا يرى نفسه أهلا له انقاذا للبلاد وخدمة للناس..

فقد طلب يوسف الوزارة التى تشبه وزارة المالية؛ فأخلص العطاء، والخدمة؛ دون ضغائن تجاه الحاكم عن فترة سجنه؛ تسامح وعفا وأصلح؛ فكان أجره على الله، أن يصلح عمله.

لم ينشغل يوسف حين أسند الأمر إليه بالثارات، والانتقام ممن ظلمه؛ وإنما تفرغ بالكلية لإنجاح نفسه أولا؛ وأنقاذ البلاد والحاكم من ثورة الجوعي.

اسمح لنا يا سيادة الرئيس أن نختلف معك، ونكون آمنين فى بيوتنا، ووظائفنا ومناصبنا؛ فربما تحتاج النصيحة فتطلبها ممن هم دونك، فيخشون الحديث بصراحة قد تغضبك؛ فيخيل إليهم أن ثمن إغضابك فقدانهم مناصبهم؛ فيؤثرون الصمت أو المداهنة، كى لا يكون رأيهم ثمنا فادحا يدفعونه من قوت أولادهم.؛ فلا أنت استفدت من عقولهم، أو وجودهم فى جوارك، ولا استفادت بهم البلد.

إن أحوج من نحتاج إليه الآن؛ هى ثقافة الاستماع وتقبل الآخر. فاضرب لنا فى ذلك مثلا؛ فإنا نرى وندرك زحف المجتمع نحو العنف السلوكي، والذى منبته إقصاء الآخر.

لا أحد يرغب أن يكون فاشلا يا سيدى الرئيس، ولو استعنت بأهل الكفاءة من المعارضين لك، لكانوا أكثر الناس اصرارا على النجاح؛ لأنه لا أحد يرغب فى أن يبدو فاشلا.وسيستعين كل منهم بمن هو كفء وتكون المحصلة نجاحا للجميع وأنت أولنا.

سدد الله خطاكم ووفقكم لكل خير يا سيادة الرئيس، ولو كانت لنا دعوة مستجابة، لجعلناها للحاكم؛ كما قال الإمام الفضيل بن عياض؛ والإمام أحمد بن حنبل؛ فبصلاح الحاكم تصلح الرعية والبلدان.

بقلم: معوض جودة